شرح

تجريد التوحيد المفيد

تأليف

الإمام العلّامة أحمد بن علي المقريزي المصري الشافعي

(٧٦٦ - ٨٤٥ هـ)

لفضيلة الشَّيْخِ الدُّكْتُورِ:

سليمان بن سليم الله الرحيلي

غَفَرَ اللّٰهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِمَشَايِخِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

الدَرْسِ (٨)

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْصَّلَاةُ وَالْسَّلَامُ الأتمانِ الأكملانِ علىٰ المبعوثِ رحمةً للعالمين، وعلىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَعَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

أما بعد؛

فمعاشر الفضلاء نحمد الله عَزَّ وَجَلَّ أن أكرمنا بأن صلينا الفجر جماعة في مسجد رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن نكون في ذمته، ثم أكرمنا فثنينا الركباء في مسجد رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن نرجو أن نؤوب من هذا المجلس بعلم نافع، وأجور كريمة، نرجو الله عَزَّ وَجَلَّ أن نقوم من هذا المجلس بأجر حاج قد تم حجه، وبأجر المجاهد في سبيل الله، وفضل الله عظيم واسع.

معاشر الإِخْوَةِ؛ إن المشروع للمؤمن إذا رأى أخًا له مبتلى أو سمع أخًا له مبتلى أن يدعو له، أن يرفع الله عنه، وأن يدفع ضره، وأن يثبت أجره، كما يشرع أن يتذكر نعمة الله عليه، حيث عافاه من هذا الابتلاء، فيعظم شكره لربه، حيث يتقلب في نعم كثيرة قد ابتلي عدد كبير من الناس بفقدها، ويقول حيث يجوز له أن يقول: الحمد لله الذي عافاني ممن ابتلاه به.

معاشر الفضلاء إن درسنا كعهدكم به في فجر السبت في علم يحبه المؤمن، ويتعلق به قلبهن ولا يمل منه أبدًا، إنه علم علمه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أول لحظة بعث فيها إلى آخر لحظة بقي فيها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إنه علم يتعلق بحق ربنا الذي أوجدنا من العدم وربانا بالنعم، خلقنا في أحسن تقويم، ورزقنا، ودبر أمورنا، وهو ملكنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يسأل عما يفعل لكمال علمه، وكمال عدله، وكمال رحمته، وكمال حكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إنه علم توحيد العبادة، حيث نشرح كتاب تجريد التوحيد المفيد لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي المصري الشافعي، المتوفى سنة ثمانمائة وخمس

وأربعين من الهجرة، ما أعظم التوحيد، وما أعظم الذين يخدمون التوحيد، رجل من مصر في القرن الثامن والتاسع نشأ في آخر القرن الثامن ومات في وسط القرن التاسع، كتب كتابًا يقرر فيه حق ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فأبقاه الله يقرأه الناس ويستفيدون منه، وها هو يقرأ في مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد سنين كثيرة من موت مؤلفه.

فيا أيها الموحد لا تحقرن شيئًا تبذله في سبيل نصرة التوحيد والدعوة إلىٰ التوحيد ما تدري لعلك تقبر في قبرك وتبقىٰ الحسنات جارية تكتب في كتاب حسناتك بسبب ذلك الأمر، والله يا عبد الله لو أنك دعوت واحد فقط إلىٰ التوحيد فخرج من عبادة القبور وعبادة الأولياء إلىٰ عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهذا خير لك مما يحبه الناس، ويقتنيه الناس، ولربما دعا هذا غيره، فكان لك الأجر ولربما استمر هذا إلىٰ يوم القيامة، هذا يدعو هذا وذاك يدعو هذا وهكذا، والأمر يجري عليك، وأعظم به من أجر وأنعم به من أجر، حيث أخرجته من الشرك وأدخلته بفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الإسلام، جعلته تابعًا للنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد علمنا معاشر الفضلاء أن جماع التوحيد وسر التوحيد أن يعلم العبد ويوقن أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الرب لا رب سواه، وهو الملك الملك المطلق وهو الإله المألوه المعبود، وقد عرفنا أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الرب الخالق الرازق المدبر المحيي المميت النافع الضار، لا رب سواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا يستلزم أن يعلم العبد أنه لا يستحق العبادة إلا الله، ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]، أفمن يرزق كمن لا يرزق، أفمن يدبر كمن لا يدبر، والله إن تسوية هذا بهذا لأكبر الجرم وأعظم الإثم، وأقبح الظلم، إنه الظلم الكبير، فكيف بمن يجعل غير الله أعظم من الله فعلًا، وإن زعم أن الله أعظم قصدًا، تجده يخاف خوف السر الذي يتعلق به النفع والضر من الأولياء المقبورين أعظم من خوفه من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تجده يرجو ما عند المقبورين أعظم من رجائه مما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تجد قلبه عند الشدائد والرخاء ينصرف إلى المقبورين في قبورهم ثم يزعم ويقول: ما هؤلاء إلا وسائلنا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، عظمتهم وقدمتهم وصرفت لهم ما لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم تزعم كاذبًا أنهم ما هم إلا وسائل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكل عاقل يدرك أنه إذا انهدمت التسوية بين الرب وغيره بين

الخالق الذي خلق والمخلوق الذي يخلق، بين الرزاق الذي يرزق والمخلوق الذي يرزق، بين المدبر الذي يدبر الأمر كله، وبين المخلوق الذي يدبر أمره.

إذا انهدمت التسوية تعين التوحيد، وإذا علم المؤمن أن الله هو الملك الذي له الملك المطلق في الدنيا والمتفرد بالملك مطلقًا يوم الدين، فالملك المطلق في الدنيا لله، وهناك ملوك ملكهم الله، أما في الآخرة فلا ملك إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكل عاقل يدرك أن الملك لا يكون ملكًا إلا إذا أمر ونهى، وإذا أمر يطاع وإذا أطيع أثيب، ومن عصاه عاقبه، فإذا أيقن المؤمن أو أيقن الإنسان أن الله هو الملك فإنه يتعين أن يعلم أن الله أمر ونهى، والمعلوم أن الملك إنما يبلغ أمره ونهيه برسله.

فالملك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أرسل للناس رسلًا وأعظم ما أمروا به هو ما اتفقوا عليه جميعًا وبدأت به رسالاتهم جميعًا وختم رسالاته جميعًا، ألا وهو: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [نوح: ٣]، وحدوا الله في العبادة، ولا تصرفوا شيئًا من أنواع العبادة لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله هو المألوه المحبوب بكمال المحبة التي تستلزم الذل والخضوع والانقياد والتسليم المطلق والمعبود المستحق للعبادة لا يستحق العبادة أحد سواه، علمنا هذا ونقرره ونكرره، وما أحلى ذلك، ثم نكمل قراءة ما سطره الإمام المقريزي رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ونعلق على كلامه.

(المتن)

قال العلامة أحمد بن علي المقريزي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في كتابه: "تجريد التوحيد المفيد"، قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلِذَلِكَ جَاءَتِ الْاِسْتِعَاذَةُ فِي سُورَةِ النَّاسِ وَسُورَةِ الْفَلَقِ.

(الشرح)

هاتان السورتان العظيمتان التي لن يقرأ المؤمن بمثلهما كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُتم بهما المصحف، والمصنف هنا يذكر ما يؤكد ما سبق تقريره من أن جماع التوحيد في أن يعلم المؤمن أن الله هو الرب، وهو الملك، وهو الإله، وأن بين هذه الأسماء الثلاثة ارتباطًا وثيقًا في توحيد المؤمن.

(المتن)

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلِذَلِكَ جَاءَتِ الْاِسْتِعَاذَةُ فِي سُورَةِ النَّاسِ وَسُورَةِ الْفَلَقِ بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَىٰ الثَّلَاثَةَ: الرَّبُّ وَالْمَلِكُ وَالْإِلَهُ، فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١)﴾ [الناس: ١].

(الشرح)

أي قل يا محمد ألجأ وألوذ واعتصم واستجير برب الناس، وهذا الأمر لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر للمؤمنين، فالله يأمرك أن تستعيذ، أن تلجأ، أن تستعصم، أن تلوذ برب الناس، هو رب الناس أجمعين، فالكل محتاج إليه، وهو الغني عن خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلتكن استعاذتك برب الناس.

(المتن)

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

كَانَ فِيهِ إِثْبَاتٌ أَنَّهُ خَالِقُهُمْ وَفَاطِرُهُمْ.

(الشرح)

كان في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١] إثبات أن الرب للناس هو الله، ولا رب لهم سواه، فو الله لو اجتمع الخلق أجمعون على أن يعطوا الإنسان شيئًا ما استطاعوا أن يعطوه إلا بما كتبه الله وبإذن الله، ولو اجتمع الخلق أجمعون على أن يمنعوا خيرًا كتبه الله لإنسان لما استطاعوا ذلك أبدًا، ولو اجتمع الخلق أجمعوا على أن يضروا إنسانًا فو الله لن يستطيع ضره إلا بأرم قد كتبه الله عليه، وبإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ففي هذا إثبات أن الله هو الرب، والرب هو الخالق الرزاق المدبر المربي بالنعم، فهو سبحانه الذي أوجد من العدم، وربى بالنعم، وليس ذلك إلا له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(المتن)

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَبَقِّيٌّ أَنَّ يُقَالُ: لَمَّا خَلَقَهُمْ هَلْ كَلِفُهُمْ وَأَمْرُهُمْ وَنُهَاهُمْ؟

(الشرح)

بقي أن يقال: علمنا أن الله رب الناس، أي أنه الذي خلقهم، وأوجدهم ودبرهم، دبر أمورهم، فهل خلقهم لحكمة أو لغير حكمة؟ هل خلقهم لحكمة أمرهم ونهاهم لتحقيقها أو تركهم عبثًا وهملًا لا يأمرون ولا ينهون؟!

(المتن)

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

قِيلَ: نَعَمْ، فَجَاءَ: ﴿مَلِكِ النَّاسِ (٢)﴾ [الناس: ٢].

(الشرح)

قيل: إنه ما خلقهم إلا ليأمرهم وينهاهم، وأعظم ما يأمرهم به التوحيد، وأقبح ما ينهاهم عنه الشرك، ولذلك كما قال الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات: ٥٦]، فجاء الجواب عن ذاك السؤال بقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَلِكِ النَّاسِ (٢)﴾ [الناس: ٢]، وما دام أنه ملك الناس فلا بد أنه أمرهم ونهاهم، وأنه يجازيهم، ولا بد أنه أرسل رسلًا يبينون أمره، يبلغون أمره، ويبينون أمره، ويبلغون نهيه، ويبينون نهيه، وأن هذا الأمر والنهي جاءت به الرسل، وأعظموا ما جاءوا به على الإطلاق هو الأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك، إذًا: ﴿مَلِكِ النَّاسِ (٢)﴾ [الناس: ٢]، أمرهم ونهاهم وسيجازيهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَأَثْبَتَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ)، أثبت الخلق في قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١)﴾ [الناس: ١]، إذًا هو الذي خلق الناس سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأثبت الأمر في قوله سبحانه: ﴿مَلِكِ النَّاسِ (٢)﴾ [الناس: ٢] فتم الأمر، فالخلق لله، والأمر لله، نتيجة ذلك الحتمية، فالعبادة لله، ما دام أن الخلق لله وأن الأمر لله فالمتحتم ألا يعبد إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(المتن)

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فَلَمَّا قِيلَ ذَلِكَ، قِيلَ: فَإِذاً كَانَ رَبًّا موجدًا، وَمَلِكًا مُكَلِّفًا، فَهَلْ يُحِبُّ وَيَرْغَبُ إِلَيْهِ، وَيَكُوْنَّ التَّوَجُّهَ إِلَيْهِ غَايَةَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ.

(الشرح)

ما دام أنه الخالق والملك، فهل الغاية أن يُعبد وأن يتوجه إليه؟ فكما أنه له الخلق وله الأمر فله العبودية؟ الجواب: بلا شك نقلًا وعقلًا أنه سبحانه إله الناس.

(قِيلَ: ﴿إِلَهِ النَّاسِ (٣)﴾ [الناس: ٣])، فالله هو المألوه المعبود المحبوب، وهو المستعاذ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والاستعاذة عبادة، والعبادة إنما هي لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(المتن)

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

أَيِّ: مألوههم وَمَحْبُوبَهُمْ، الَّذِي لَا يَتَوَجَّهُ الْعَبْدُ الْمَخْلُوقُ الْمُكَلَّفُ الْعَابِدُ إِلَّا لَهُ، فَجَاءَتِ الْإِلَهِيَّةُ خَاتِمَةٌ وَغَايَةٌ، وَمَا قِبَلَهَا كَالتَّوْطِئَةِ لَهَا.

(الشرح)

هكذا في هذه السورة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١)﴾ [الناس: ١] طريق إلى ملك الناس، طريق إلى إله الناس، فكانت الغاية التي من أجلها خُلق الناس أن يعبدوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى موحدين له، وانظر رعاك الله كيف أن المصحف بدأ بهذا، وخُتم بهذا، فما أول سورة مكتوبة في المصحف؟ الفاتحة، ماذا فيها؟ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢] إذًا هو خالقهم ورازقهم ومدبر أمورهم، ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣)﴾ [الفاتحة: ٣]، فلولا رحمة الله ما كانوا، ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة: ٤]، فهو الملك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولماذا خُص يوم الدين هنا بالملك؟ الجواب: لأنه في يوم الدين لا ملك إلا الله، لا يوجد مخلوق إذ ذاك يقول: أنا ملك، أبدًا، الكل ذليل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه: ١٠٨]، فالله هو الملك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا من وجه.

ومن وجه آخر: أن يوم الدين هو يوم الجزاء، والملك هو الذي يرجى خيره بمقدار ما عنده، ويخاف عقابه، والملك يوم القيامة هو الله، فينبغي على المؤمن أن يرجو الخير من الله، وأن يخاف عقاب

الله، ومفتاح ذلك الذي لا يفتح إلا به التوحيد، فمن لم يوحد فليس له إلا العقاب، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥]، هذا توحيد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، هذا حصر، فكل عبادتنا صغيرها وكبيرها لك، لا ندعو ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا ولا وليًا صالحًا ولو في لحظة، دعاؤنا كله لك يا الله، عبادتنا كلها لك يا الله، ومن ذلك: أنا لا نستعين إلا بك، فالاستعانة المطلقة إنما هي بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فبدأ المصحف بهذا، وخُتم بهذا: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣)﴾ [الناس: ١ - ٣]، كما أن رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدأت بالدعوة إلى توحيد العبادة، دعاهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن يقولوا: لا إله إلا الله، وختمت بالدعوة إلى توحيد العبادة والتحذير من الشرك، فنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما حضرته الوفاة ونزل به الموت جعل يلقي على وجهه طرف خميصة، فإذا اكتم بها كشفهها، وقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

قالت أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يحذر ما صنعوا، فتأمل يرعاك الله هل هناك أعظم من التوحيد؟ بدأ به المصحف وختم به المصحف، وملء به المصحف، وبدأت به دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما يدعو في أول الأمر إلا للتوحيد، توحيد العبادة، وختمت به دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد شرع لنا أن نقرأ الفاتحة في كل ركعة من ركعات الصلاة، فرضًا كانت أو نفلًا، حتى عند الذين يقولون: إن المأموم لا يقرأ الفاتحة مطلقًا أو لا يقرأها في الجهرية.

هم يقولون: إن المأموم يقرأ حكمًا، لأن قراءة الإمام قراءة له، إذًا نحن مأمورون أن نقرأ الفاتحة في كل ركعة من صلواتنا، سواء كانت الصلاة فرضًا أو نفلًا، ونحن نقول فيها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢]، فنقر لله بأنه رب العالمين، ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة: ٣، ٤]، فنقر لربنا سبحانه أنه الملك، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥].

فلما أقررنا ووحّدنا دعونا، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: ٦]، وثبتنا عليه، وشرع لنا بعد كل صلاة أن نقرأ سورة الناس، شرع لنا وجوبًا أن نقرأ الفاتحة في كل ركعة، فيها تقرير الوحيد

على الوجه الذي ذكرناه، ثم إذا سلمنا وذكرنا شرع لنا أن نقرأ سورة الناس، وفيها تقرير التوحيد على الوجه الذي ذكرناه، فالمؤمن لا يغفل عن التوحيد، ولا يغفل عن مبادئ التوحيد، في كل صلاة يقرأ ما يقرر التوحيد، وبعد كل صلاة يقرأ ما يقرر التوحيد، وهكذا شأن المؤمن، وهذا يدلك على عظم شأن التوحيد فعظموه وحققوه رعاكم الله.

(المتن)

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهَاتَانِ السُّورَتَانِ أَعَظَمَ عُوذَةٍ فِي الْقُرْآنِ.

(الشرح)

هاتان السورتان: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١)﴾ [الفلق: ١] و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١)﴾ [الناس: ١] أعظم عوذة أي أعظم ما يتعوذ به، أي أعظم رقية في القرآن، والقرآن كله يمكن أن يكون رقية، ولذلك من الرقية أن تقرأ القرآن كله، وهذه الرقية أعني قراءة القرآن كله لها تأثير عجيب، فهناك من الأسحار ما يكون دفينًا لا تظهره بأمر الله إلا رقية قراءة القرآن كله، ثم بعض الآيات أبلغ من بعض وأكمل من بعض في العوذة، وسورتا: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١)﴾ [الفلق: ١] و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١)﴾ [الناس: ١] أعظم عوذة في القرآن، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عابس الجهني: «ألا أخبرك بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون؟» قال: بلى يا رسول الله! قال: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١)﴾ [الفلق: ١] و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١)﴾ [الناس: ١]» رواه النسائي وصححه الألباني، فهذا حديث صحيح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هاتين الصورتين أعظم عوذة في القرآن.

وسر ذلك: أن في هاتين السورتين التوحيد، فيجتمع عند قراءتهما في الرقية التوسل إلى الله بأمرين عظيمين:

الأول: التوحيد، والتوحيد أعظم ما يتوسل به إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الصالحات.

والأمر الثاني: التوسل إلى الله بكلامه، واحسن الكلام كلام الله، فإذا تعوذ المؤمنين بهاتين السورتين اجتمع له هذان الأمران العظيمان: التوسل إلى الله بالتوحيد والتوسل إلى الله بكلامه، كما

أن فيهما الاستعاذة من شر كل ذي شر، ما بقي شر إلا واستعيذ منه في هاتين السورتين، الشر الذي تعلم والشر الذي لا تعلم، ما من شر إلا واستعيذ منه في هاتين السورتين، ولذلك العلماء يقولون: هاتان السورتان رقية لدفع البلاء ورقية لرفع البلاء، يتحصن بهما ويستشفى بهما، ولذلك شرع لنا بعد الفجر من أذكار الصباح أن نقرأ هاتين السورتين مع سورة الإخلاص الصغرى ثلاث مرات، بعض الناس مع المتعالمين يقول: أخطأ الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ لأنه قال: يقرأ بعد الفجر بـ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص: ١]، والمعوذتين ثلاث مرات، وما وجدها هذا في السنة، الشيخ ذكر هذا على أنها من أذكار الصباح ولأهميتها جعلها عقب الصلاة حتى لا يفرط فيها المؤمن، وهذا فقه العلماء، ولذلك يا إخوة لا تلتفتوا إلى الأصاغر الذين يتطاولون على الأكابر، فإن الأكابر بلغوا من العلم ما لا يدركه الأصاغر.

إذًا شرع للمؤمن في أذكار الصباح وأذكار المساء والخير لا يفقد ذلك أن يجعلها بعد صلاة الفجر وبعد صلاة المغرب، أن يقرأ سورة الإخلاص والمعوذات ثلاث مرات يتحصن بها صباحًا، فيحفظ في نهاره، ويتحصن بها مساء فيحفظ في ليله، فعلموها أبنائكم، وعلموها أهليكم.

(المتن)

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَجَاءَتِ الْاِسْتِعَاذَةُ بِهِمَا وَقْتُ الْحَاجَةِ إِلَىٰ ذَلِكَ، وَهُوَ حِينَ سُحِرَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَخُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا فِعْلِهِ.

(الشرح)

سُحر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سحرة لبيد بن العاصم لكن أثر السحر عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في غير ما عُصم فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وانتبهوا لهذا فيه جانبان: جانب البشرية، ومن هذه الجهة يصيبه ما يصيب البشر من المرض والنسيان والبلاء ونحو ذلك، والجانب الثاني: جانب النبوة، وهو في هذا الجانب معصوم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعتريه فيه شيء، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، فنبه على الجانبين، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠]، هذا جانب البشرية،

﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، هذا جانب النبوة، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون» متفق عليه، فسحر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جانبه البشري، فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخيل إليه أنه فعل الشيء في بيته وهو لم يفعله، فيخيل إليه أنه أتى زوجته وهو لم يفعل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن هذا السحر يقينًا لم يؤثر في دينه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يؤثر في عقله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يترتب على ذلك شيء يتعلق بالدين أبدًا.

والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، لكن هذه العصمة في كونه رسولًا، ولا تمنع من أن يصيبه ما يصيب البشر في الدنيا، ولذلك يا إخوة ماذا وقع له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ جرح، وكسر البيضة فوق رأسه، ودخلت حلقات المغفر في وجنتيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنه بشر، يصيبه ما يصيب البشر إن شاء الله ذلك، وكانت تصيبه الحمى حتى ترى حرارتها وتوجد حرارتها من فوق الألحفة، وكان يغمى عليه من شدة المرض كما في آخر حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا لا يخالف العصمة؛ لأن العصمة كما قلنا في جانب الرسالة، والسحر في الجانب الذي ذكرناه إنما هو مرض يصيب البشر.

تقول أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: سُحر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سحره رجل يقال لهك لبيد بن الأعصم، ولبيد بن الأعصم كان من الأنصار، من بني زريق، بنو زريق حي معروف من الأنصار، لكنه تهود، وصار يهوديًا على قول بعض أهل العلم، أو كان حليفًا لليهود على قول بعض أهل العلم، ولذلك يقول بعض أهل العلم: لبيد بن الأعصم اليهودي، مع أنه ليس من جنس اليهود هو من بني زريق الأنصار، لكن يقولون هذا إما لأنه تهود ديانة، أو أنه حالف اليهود، والحليف ينسب إلى خلفائه.

بل جاء في صحيح مسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها قالتك سحر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهودي من يهود بني زريق يقال له: لبيد، هذه أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول: سحر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهودي من يهود بني زريق يقال له: لبيد، من يهود بني زريق، بنو زريق ليسوا من اليهود، لكن من بني زريق من تهود، ومنهم هذا لبيد، أو كان حليفًا لليهود، وقد أسلم نفاقًا، وكان منافقًا، قالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: سحر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجل يقال له: لبيد بن الأعصم،

حتى كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، وهذا سُبْحَانَ اللَّهِ في بيته، هذا يحصل له في بيته، ولذلك جاء في رواية عند البخاري: حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، يعني سحر حتى كان يرى ويظن أنه أتى النساء أتى امرأته وهو لم يأتها، وفي رواية عند البخاري أيضًا: يخيل إليه أنه يأتي أهله ولا يأتي، حتى كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندي لكنه دعا ودعا ثم قال: «يا عائشة أشعرتِ أن الله أفتاني فيما استفته، أتاني رجلان فقعدا أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي»، يعني أتاني ملكان على هيئة رجلين، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، ومطبوب تعني مسحور، قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة.

ما معنى في مشط ومشاطة؟ أي أخذ مشطًا وأخذ من شعر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولفه في هذا المشط، هذه المشاطة الذي يكون في المشط في العادة عندما يمشط الإنسام يبقى شعر في المشط، وجف طلع نخلة ذكر، يعني أخذ المشط ووضعه في داخل طلع نخلة ذكر، ووضع في البئر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان، وهذه بئر لبني زريق، قريبة من المسجد، فأتاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أناس من أصحابه، وقد نشط رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمر بدفنها، فدفنت، وهذا الحديث في غاية الصحة، متفق عليه، رواه البخاري ومسلم، وإذا فُهم على الوجه الذي ذكرناه اندفعت كل الشبه التي تتعلق بهذا الحديث، ومن حكم سحر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن يعلم المؤمن أن الأسباب مهما بلغت فما هي إلا أسباب، إن شاء الله عطلها، وإلا فأعظم متحصن على الإطلاق هو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن هذا سبب، والأمر كله بيد الله، فالله إذا شاء جعل السبب عاملًا وهذا الأصل، وإذا شاء عطله، فيمضي أمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا من حكم سحر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا تتعلق أيها المؤمن بالسبب مهما كان، إنما تفعله على أنه سبب، وتعلق قلبك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يقع عليه تعليم لنا، وفيه حكم عظيمة، ولذلك من الفوائد: أن الفقهاء يقولون: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يفعل مكروهًا، لكن فعله قد يدل على أن الشيء مكروه، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يفعل مكروهًا، لم؟ لأنه في حقه ليس مكروهًا، لأنه يُبين لنا فهو مصلحة في حقه، لكن فعله قد يُبين أن الشيء مكروه، ولذلك

العلماء لما جاءوا مثلًا إلى الشرب قائمًا، كثير منهم قالوا: إن الشرب قائمًا مكروه، ما الدليل؟ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع نهيه عن الشرب قائمًا شرب قائمًا، فكان فعله دليلًا على الكراهة، فكان هذا مكروهًا في حقنا لا في حقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَأَقَامَ عَلَىٰ ذَلِكَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، كَمَا فِي الصَّحِيحِ، وكانت عُقِدَ السِّحْرِ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ عُقَدَةً، فَأَنْزَلَ اللهُ المعوّذتين إِحْدَىٰ عَشْرَةَ آيَةٍ، فَانْحَلَّتْ بِكُلِّ آيَةٍ عُقَدَةً.

(الشرح)

أولًا اعلموا أن قول المصنف: **(كَمَا فِي الصَّحِيحِ)**، راجع إلى قوله: **(سُحِرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)** وليس إلى المدة، كما في الصحيح كما في الصحيحين، أي أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُحر، وليس إلى قوله: **(وَأَقَامَ عَلَى ذَلِكَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا)**، فإن هذا لم يرد في الصحيحين، لكن ذكر ابن حجر في فتح الباري أنه عند الإسماعيلي: فأقام أربعين ليلة، قال: وفي رواية وهيب عن هشام عند أحمد: ستة أشهر، ويمكن الجمع بأن تكون الستة أشهر من بداية تغير مزاجه، والأربعين يومًا من استحكامه، يعني أن السحر وضع فبدأ مزاج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتغير في بيته لكن السحر لم يستحكم ويتمكن إلا في آخر أربعين يومًا من هذه الستة أشهر، قلت: جاء عن أحمد بإسناد صحيح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: لبث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ستة أشهر يرى أنه يأتي ولا يأتي، يعني يرى كما ذكرنا سابقًا في بعض الدروس بمعنى يظن.

يرى: يظن، أنه يأتي يعني يأتي أهله ولا يأتي، فأتاه ملكان، الحديث، وعند النسائي وأحمد بأسانيد صحيحة عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سحر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجل من اليهود فاشتكى أيامًا، إذًا السحر من جهة مدته: مدته ستة أشهر، شكوى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووجعه الظاهر كان أيامًا، والظاهر أنها أربعون يومًا، على ما ذكر الحافظ بن حجر في رواية الإسماعيلي، جاء عند عبد بن حميد وصححه الألباني عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سحر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجل من اليهود، فاشتكى، أي ظهر الوجع عليه، فأتاه جبريل عليه فنزل عليه بالمعوذتين،

وقال: إن رجلًا من اليهود سحرك، والسحر في بئر فلان، فأرسل عليًا فجاء به، فأمره أن يحل العقد ويقرأ آية، يعني يحل عقدة ويقرأ آية، فجعل يقرأ ويحل حتى قام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كأنما أنشط من عقال، فُهم من هذا يا إخوة أن العقد إحدى عشرة عقدة، لأن المعوذتين إحدى عشرة آية، وهو كلما قرأ آية حل عقدة، إذًا هي إحدى عشرة عقدة، هذا ما جاء صريحًا لكن هذا مفهوم، والشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ صحح هذا الحديث.

واللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَىٰ وَأَعْلَمُ

وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّد وَسَلَّمَ.